وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية فصلية محكمة

تصدرها كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد
الترميز الدولي
issn2075-8626

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية –فصلية - محكمه

تصدرها

كلية العلوم الإسلامية

جامعة بغداد

العدد:٨

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

محتويات العدد ٨ لعام ٢٠٠١

اسم البحث	اسم الباحث	رقم الصفحة
التا سي برسول الله	د .محمد صالح الحمداني	١
صفة الكلام لله سبحانه وتعالى وعلاقته بأصل اللغات	د. محمد سعيد حوى	١٤
اثر المسجد في تربية الطفل من خلال السنة النبوية المطهرة	د. عبد العزيز شاكر الكبيسي	٤٢
اضواء على حياة زيد بن علي وثقافته	د. خليل ابراهيم السامرائي	٦٧
الشروط المقترنة بعقد الزواج حقيقتها اقسامها اثارها وموقف قانون الاحوال لشخصي الاردني منها	د. عبد الرحمن زيد الكيلاني	١١٠
قطف الازهار وكشف الاسرار لجلال الدين السوطي تحقيق سورة الانفال	د. اسماء عدنان محمد سلمان	١٤٦
القضاء واثره في الوقاية من الجريمة دراسة موجزة في الشريعة والقانون	د. احمد حسوني جاسم العيثاوي	١٩٠
خير الواحد عند الامام الشافعي دواعي بحثه وادلته في ثبات حجيته من خلال كتاب الرسالة	د. زياد عواد ابو حماد	٢٢٦
ابن وكيع التنيسي ناقداً	د. حمودي زين الدين المشهداني	٢٤٥
الاتجاه العلمي في تفسير القران الكريم قراءة في المنهج	د. عبد الامير كاظم زاهد	٢٥٦
أذا في كتب النحو	د. علي محسن عيسى مال الله	٢٧٩
الدفاع عن شخص النبي في ضوء سورة القلم	د. يحيى ضاحي علي شنطاوي	٣١٩
ديوان اميرة نور الدين دراسة وتحقيق	د. احمد حميد كريم	٣٤٧
الرحمة والشفقة في القران الكريم من منظور رسالة النور	د. محمد علي زغلول	٤٠٣
دلالة الاقتضاء واهميتها في تفسير النصوص الشرعية والقانونية	د. محمد الرحيل غرابية	٤٣١
الاجارة في الاسلام(طلب الامانة)	د. عبد الغفور كريم علي د. محمود عبد الرزاق احمد	٤٦٧
اختلاف العراب واثره في اختلاف المعنى	هدى صالح محمد	٤٩٥
نظرية المقولات المنطقية في فلسفة ابو يوسف الكندي	د. عبد الكريم سلمان الشمري	٥١٠
المصدر الميمي في القران الكريم	د.ناهية عبد الكريم رشيد	٥٣٣
الصحابي صهيب بن سنان حياته ودوره في الاسلام	د. عاطف عباس القيسي	٥٦٠
عظم جريمة خيانة العبد لله و رسوله	د. عبدو بن علي الحريري	٥٧١
الكناية والاستعارة عند الزمخشري في كتابة اساس البلاغة	عفاف يعقوب يوسف هندي	٦٠٦
الطوفان ن في القران الكريم	د. عبد الكريم عبد الحميد القيسي	٦١٧
خيار الروية واثره على العقد	د. محمود مطلوب احمد	٦٧٠
حقيقة التصوف في ضوء الكتاب والسنة	د. عبد الجليل عبد الرحيم علي	٦٨٧
الفاصلة في القران الكريم	د. بهيجة باقر جعفر قاسم الحسني	٧١٤

صفة الكلام لله سبحانه وتعالى

وعلاقتها بأصل اللغات

إعداد

د. محمد سعيد حوى

جامعة مؤتة – كلية الشريعة

ص ب (٧)

أيار / ١٩٩٩م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبة أجمعين وبعد كثيرة تلك القضايا التي كان لها أثر كبير في أحداث شرخ وشقاق وإثارة جدل ومناظرات بين علماء الأمة الإسلامية من ابناء المدارس العقدية والفلسفية والفقهية المختلفة.

ولقد كانت قضية الصفات (صفات الله ﷻ) من أخطر تلك المسائل، وكان من أخطر مسائل الصفات مسألة صفة الكلام، فرأيت أن ألقي أضواء على هذه المسألة الهامة مبيناً آثرها في مسألة تتصل بعلم فقه اللغة ليتبين كيف أن القضايا العقدية تلقي بظلالها على كل شيء...

وقد كان في النية أن أتكلم عن المنهجية التي ينبغي اتباعها في هذا البحث عند علمائنا وخطورة الخوض في هذه الأمور بما لم يأذن به الله. وأن علماء السنة إنما خاضوا مضطرين لا مختارين، فلعل ذلك يكون في مبحث آخر إن شاء الله.

المطلب الأول

في صفة الكلام

أولاً: تعريف صفة الكلام

مما ينبغي تقريره ابتداءً أن تعريف صفة الكلام خضع لاتجاهات المذاهب؛ فنجد الأشاعرة مثلاً تقول:

"صفة الكلام أزلية عبر عنها بالنظم المسمى بالقرآن المركب من الحروف[1]".

أو يقولون: (الكلام لغة: الالفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس أو: المعنى القائم بالنفس.

وعرفاً: صفة أزلية قائمة بالنفس ليست بحرف ولا صوت منزه عن التقدم والتأخر والإعراب والبناء ومنزهة عن السكوت النفسي "بأن لا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه" وعن الآفة الباطنية "بأن لا يقدر على ذلك" كما في حال الخرس قالوا والآفة الباطنية تمنع الكلام النفسي)[2].

وهذا -كما قلت- باعتبار المذهب الاشعري القائل بأن الكلام الحقيقي هو الكلام النفسي لا غير وأن الكلام اللفظي إنما هو دال على الكلام الحقيقي كما أن الكتابة تدل والإشارة تدل... الخ.

---

(١) التفتازاني، شرح سعد الدين العقائد النسفية المطبوع مع ميزان العقائد نشر مكتبة خير كثير - باكستان- ص٣.

(٢) انظر إبراهيم الباجوري. شرح جوهرة التوحيد- تحقيق وتنسيق أديب الكيلاني ط١٩٧٢ حماة. ص١١٢. وانظر محمود صالح البغدادي. إرشاد الأنام إلى عقائد الإسلام. دار عمار. عمان ١٩٨٥ ط١ ص٨٢.

وعرفته المعتزلة أنه الحروف والاصوات الحادثة غير قائمة بذاته[١].

ولا نطيل في تعريف الصفة لأن تقرير المذاهب يوضح لنا الأمر...

ثانياً: تقرير المذاهب في صفة الكلام

ذكر العلماء عدة آراء في صفة الكلام، وأوصلها بعضهم إلى تسعة، وفيما يلي عرض موجز لآرائهم في ذلك:

١- مذهب أهل الحديث في رأي ابن تيمية[٢]:

إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بصوت كما جاءت الآثار والقرآن.. ليس ببائن عنه مخلوقاً ولا يقولون أنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ولا أن كلام الله من حيث هو حادث.. بل مازال متكلماً إذا شاء وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته فكلامه لا ينفذ[٣]. وسنزيد ذلك وضوحاً.

٢- قول الفلاسفة:

إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد بل هو ما يفيض على النفوس من المعاني إعلاماً وطلباً إما من العقل الفعال وإما مطلقاً عند فلاسفة التصوف، فالكلام الذي سمعه موسى لم يكن موجوداً إلا في نفسه[٤].

٣- قول المعتزلة[٥] ووافقهم بعض الزيدية والإمامية:

إن الله متكلم بكلام ليس صفة له بل مخلوق يخلقه في بعض الأجسام وأوجد الحروف والأصوات في محالها أو أشكال الكتابة في اللوح المحفوظ وأنكروا الكلام النفسي وقالوا: أن معنى "كلم الله موسى" أنه خلق في شجرة أصواتاً وحروفاً وسمع ما أراد الله أن يوصله إليه[٦].

٤- قول الكلابية أنه قديم قائم بالذات ليس بحروف ولا أصوات، والموجود بين الناس عبارة عنه وهو قريب من قول الاشاعرة، إلا أنهم

---

(١) المصادر السابقة ونبراس العقول شرح العقائد، محمد عبد العزيز الفرهاوي، مكتبة امدادية باكستان ص١٣٩. وانظر فيما سبق: حاشية العلامة الخيالي على شرح العقائد النسفية دار إحياءي الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي- مصر-ص٧٧ وأبو المعالي، الجيوني، كتاب الإرشاد مكتبة الخانجي القاهرة ص١٠٤ والكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، وزارة الثقافة والإرشاد. دمشق ١٩٨٢/٢٠/ص٩٩.

(٢) وإنما قلت في رأي ابن تيمية لأنهم يعبرون عن هذا بالسلفية والجميع يتنازع أسم السلفية كما هو معروف.

(٣) ابن تيمية أبو العباس أحمد. مجموع الفتاوي، السعودية، جمع عبد الرحمن العاصمي النجدي، (١٣٩٨) ط١ ج١٢/ ص١٧٣.

(٤) المصدر السابق ١٦٣/١٢.

(٥) المصدر السابق ١٦٣/١٢-١٦٤ والشيخ محمد خضر الشنقيطي، استحالة المعية بالذات، المطبعة المحمودية التجارية، مصر بلا تاريخ، ص٢٨٤-٢٨٥، والمصادر السابقة.

(٦) الشنقيطي، استحالة المعية ٢٨٤، ابن تيمية، مجموع الفتاوي ١٦٣/١٢.

يقولون بأن المعنى القديم لا يسمع وأن معنى التكليم خلق إدراك للمكلم يسمع به الكلام، وعلى كل فهو شبه موافق للاشاعرة.

٥- قول الكرامية: أنه محدث لا مخلوق وقالوا الحروف والاصوات كلامه، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً.

٦- قول السالمية إنه حروف وأصوات قديمة الاعين وهو عين هذه الحروف المكتوبة والاصوات المسموعة.

٧- أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته.

٨- أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره[1].

٩- قول الأشاعرة[2]:

القرآن كلام الله غير مخلوق مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالالسنة منزه عن الحروف والاصوات، والكلام هو والكلام النفسي القائم بالذات صفة قديمة له موجودة أزلاً.

فالكلام صفة لذات الله لم يزل ولا يزال موصوفاً به قائماً به مختصاً بذاته. ولا يصح وجوده بغيره وأن كان محفوظاً بالقلوب متلواً بالالسن... مقروءاً في المحاريب على الحقيقة لا المجاز وغير حال في شيء من ذلك وأنه لو حل في غيره لكان الغير متكلماً وآمراً وناهياً ومخبراً وقائلاً ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وذلك خلاف دين المسلمين، وأن كلامه لا يجوز جسماً من الأجسام ولا جوهراً ولا عرضاً وأنه لو كان كذلك لكان من جنس كلام البشر.

وأن كلامه مسموع بالآذان وإن كان مخالفاً لسائر اللغات وجميع الأصوات وأنه ليس من جنس المسموعات كما أنه مرئي بالأبصار وإن كان مخالفاً لاجناس المرئيات..

وأن سامع كلامه منه ﷻ بغير واسطة ولا ترجمان كجبريل وموسى ومحمد حق سمعه ذاته غير متلو ولا مقروء ومن عداهم ممن يتولى الله خطا به بنفسه إنما يسمع كلاماً متلواً ومقروءاً. وإن كلام الله غير متبعض ولا متغاير...أ.هـ.

ثالثاً: تحرير النزاع في صفة الكلام

قال السعد في شرح المقاصد:

"انتظم من المقدمات القطعية المشهورة قياسان ينتج أحدهما قدم كلام الله وهو أنه من صفات الله...

وينتج الآخر حدوثه وهو أنه من جنس الأصوات الهادئة.

---

(١) المصادر السابقة، استحالة المعية ٢٩٣ فما بعدها، ابن تيمية ١٦٣/١٢ فما بعد، وابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، المكتبة الإسلامي بيروت ط (٧) سنة ١٩٨٣م ص١٧٩-١٨٠ .

(٢) المصادر السابقة وأبو بكر بن الطيب الباقلاني، الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. تحقيق محمد زاهد الكوثري مؤسسة الخانجي ١٩٦٣، ط٢ س٢٦-٢٧.

فاضطرم القوم إلى القدح في أحد القياسين ومنع بعض المقدمات ضرورة أمتناع حقيقة النقيضين.

[فمنع] المعتزلة كونه من صفات الله، و [منع] الكرامية دلالته على حقيقة قديمة. والاشاعرة [منعوا] كونه من جنس الاصوات والحروف. و [قرر] الحشوية كون المنتظم من الحروف حادثاً، ولا عبرة بكلام الكرامية والحشوية فيبقى النزاع بيننا وبين المعتزلة وهو في التحقيق عاد إلى إثبات الكلام النفسي ونفيه وأن القرآن هو هذا المؤلف من الحروف الذي هو كلام حسي أولاً، فلا نزاع لنا في حدوث الكلام الحسي ولا لهم في قدم الكلام النفسي لو ثبت[1]. لكنهم لم يثبتوه فاختلف الاشاعرة مع المعتزلة .

فالفرق الثلاثة متفقة على أنه لا معنى للكلام سوى المركب من الحروف والأصوات، والاشعري ومن معه يجعلون الكلام معنى غير المركب من الحروف والصوت وهو حقيقة، بل هو الحقيقة على الأصل[2].

مما سبق يظهر لنا أن كثرة هذه الاقوال التي يسوقها بعض العلماء إنما تعود إلى أربعة أقوال حصراً:

١- أنه من حرف وصوت وأن الحرف والصوت مخلوقان/ المعتزلة.

٢- أنه من حرف وصوت وأنه قديم/ الحنابلة.

٣- أنه محدث وقالوا بحلول الحوادث بالله وأن الله تكلم بعد أن لم يكن متكلماً/ الكرامية والفرق بينهم وبين المعتزلة أن المعتزلة لا يثبتون الصفة لله أما الكرامية فيثبتونها ويثبون حدوثها، أما الحنابلة فأثبتوا الحرف والصوت وأثبتوا قدمها.

٤- الأشاعرة وقد وجدوا أن ماسبق متعارض مع العقل أو النقل. فقالوا بالكلام النفسي القديم غير المركب من الحرف والصوت[3]..

رابعاً: الأدلة والمناقشة

الخوض في هذا المضمار قد يكون خارج نطاق البحث وهو متشعب وواسع جداً وقد فصلته الكتب تفصيلاً، فإذا أردنا الخوض فيه سيطول بنا المقام ولن يكون لنا إلا النقل فلا

(١) السعد في المقاصد فيما نقله عنه محمد زاهد الكوثري في حاشية الانصاف ص٧٩ وانظر محمد الحسيني الظواهري، التحقيق التام في علم الكلام ط (١) ١٩٣٩. مطبعة حجازي القاهرة ص٧٣ - ٧٤.

(٢) التحقيق التام ص٧٤.

(٣) انظر عبد القاهر أبو منصور البغدادي، أصول الدين، دار الكتب العلمية مصورة عن استانبول ١٩٢٨ ص١٠٦-١٠٨.

فائدة، لكن أعرض جانباً من المشكلة دون مناقشة مفصلة إلا لبعض القضايا[١]:

١- ما هي حقيقة رأي الحنابلة في الحرف والصوت

فلقد كان قول الحنابلة هذا مثار نقد شديد عند مخالفيهم، إذ قالوا: كيف يجوز في العقول أن يكون كلاماً من حرف وصوت غير مترتب ولا متعاقب وإذا كان لم يصح في العقول ذلك فهذا يعني أن الكلام حادث وأن الله تحل به الحوادث وأن القول بقدم الأصوات يوجب القدم لجميع كلام الخلق وهذا قول يؤدي إلى قدم جميع العالم. وأن الحروف تحتاج إلى مخارج فحرف الشفة غير حرف اللسان وحرف الحلق: غيرهما فلو كان الله ﷻ يحتاج في كلامه إلى الحرف لاحتاج إلى المخارج وهو منزه عن جميع ذلك.

وأن الحروف متناهية وكلام الله قديم لا مفتتح له ولا نهاية لحدوده وقالوا، من زعم أن السين من بسم الله بعد الياء والميم بعد السين لا أول له فقد خرج عن المعقول وأنكر البديهة فإن اعترف بوقوع شيء بعد شيء فقد اعترف بأوليته. فإن أدعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته وتعين لحوقه بالسفسطة، وكيف يرجى أن يرشد بالدليل...الخ.

وقد ساق الحنابلة أدلة نقلية كثيرة لإثبات رأيهم. منها: قول الله ﷻ: ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ والذي يسمع هو الصوت والحرف وقول الله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ وغير ذلك وقد ناقش الباقلاني هذا بإسهاب وأورد لهم حججاً أخرى ولا نخوض في كل هذا لعدم صراحة هذه الادلة في المراد. ولكن سأورد دليلاً واحداً من السنة هو الدليل الوحيد الصريح الذي يمكن أن يحتج به الحنابلة وهو ما جاء في الحديث: "إذا كان يوم القيامة نادى الله بصوت يسمعه من بعد كما سمعه من قرب"[٢]. فقالوا: أضاف رسول الله ﷺ على الكلام الصوت إلى الله فصح ما قلناه.

---

(١) انظر في الأدلة لكل فريق ومناقشتها: الإنصاف للباقلاني ٩٩-١٤٠ وانظر استحالة المعية بالذات ٢٧٣ فما بعدها. للنشر الطيب على توحيد ابن عاشر شرح الشيخ الطيب ١/٥٣٩-٥٦٢ و ١/٢٨٠-٢٨٢ والمجلد ١٢ من مجموع فتاوي ابن تيمية وغيرها من المراجع ... وأبو الحسن الاشعري علي بن اسماعيل، الابانة عن أصول الديانة دار الكتب العربي ط(١) ١٩٨٥ ص٤١ فما بعدها والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٨١ فما بعدها، دار أحياء التراث العربي ومحمد بن إسحاق بن خزيمة كتاب التوحيد دار الكتب العلمية ص١٣٦ فما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً، هامش فتح الباري ١٣/٤٥٢- المطبعة السلفية.

وقد قيل في الرد:

أولاً: الحديث أخرجه البخار بصيغة التعليق الممرض وفي سنده عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ضعيف فالحديث غير ثابت[١].

ثانياً: حمله بعض الآئمة على مجاز الحذف أي يأمر من ينادي وفي هذا الصدد ذكر البيهقي أنه لم يثبت لفظ الصوت في حديث صحيح عن النبيﷺ غير حديث ابن عقيل وبينا ما فيه فإذن يرجع إلى غيره كحديث ابن مسعود يرفعه: "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق" أخرجه البخاري.. وما رواه البخاري أيضاً عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللهﷺ: "يقول الله يا آدم، فيقول لبيك وسعديك، فينادي بصوت أن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار..."[٢] وعلق البيهقي:

أن الملائكة يسمعون صوتاً فيحتمل أن يكون الصوت للسماء أو الملك الآتي بالوحي أو الاجنحة فلم يكن مع الاحتمال ذلك نصاً في المسألة أ.هـ فنلاحظ أن الرواية الثانية بنيت للمجهول والاولى لم تصرح بالصوت وقوله سكن الصوت قد يكون صوت السلسلة[٣].

لكن يرى ابن حجر أن سبب النفي الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين لأنها التي عهد أنها ذات مخارج ولا يخفي ما فيه إذ الصوت قد يكون من غير مخارج كما أن الرؤيا تكون من غير اتصال، وإذا ثبت ذكر الصوت بهذه الاحاديث الصحيحة وجب الايمان به ثم إما بالتفويض أو بالتأويل[٤] أ.هـ.

ونورد هنا رأي ابن تيمية في تصوير رأي الحنابلة في الحرف والصوت:

إذا سئل: هل كلام الله حرف وصوت أم لا؟ فقال: إطلاق الجواب في هذه المسألة نفياً أو إثباتاً خطأ وهي من البدعة المولدة الحادثة بعد المائة الثالثة لما قال قوم من متكلمة الصفاتية إن كلام الله... ليس إلا مجرد معنى واحد وهو صفة واحدة قامت به.. فعارضهم آخرون من المثبتة فقالوا بل القرآن هو الحروف والأصوات، وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد وبالاصوات أصوات العباد وهذا لم يقله عاقل[٥].

ويضيف ابن تيمية: وأن الله يتكلم بصوت كما جاءت بها الأحاديث الصحيحة وليس ذلك كأصوات العباد ولا صوت القارئ ولا غيره وأن الله ليس كمثله شيء ولا حروفه تشبه حروفه ولا صوت الرب يشبه صوت العبد. أ.هـ.

---

(١) انظر ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، تحقيق محمد عوامة رقم ٣٥٩٢.

(٢) أخرجه البخاري ٤٥٢/١٣ كتاب التوحيد بهامش الفتح.

(٣) لأنه في رواية أبي داود سمع أهل السماء للسماء صلصلة كحجر السلسلة.

(٤) فتح الباري ٤٥٨/١٣.

(٥) مجموع فتاوي ابن تيمية ٢٤٢/١٢-٢٤٤ بأختصار.

والذي يمكن قوله في هذا المقام:

أن القول بالصوت بدعة محدثه بإقرار ابن تيمية وأن الاشاعرة يقولون كما نقلنا عن الباقلاني: إن كلامه مسموع بالآذان وإن كان مخالفاً لسائر اللغات وجميع الاصوات وأنه ليس من جنس المسموعات كما أنه مرئي بالأبصار وأن كان مخالفاً لأجناس المرئيات ونقلنا عن ابن حجر قوله: أن سبب النفي الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقية.

فإذن: إذا انتفى أن يكون المراد هو الصوت والحرف المعروف، انتفى عند الحنابلة أن يكون الكلام بالحرف والصوت بترتيب وتعاقب، وانتفى عندهم أن تكون الحروف والأصوات تشبه الحروف والأصوات المعروفة.

وإذا ثبت عند الاشاعرة أن كلام الله مسموع، فهل بعد هذا مشكلة؟

نعم يوجد مشكلة... هو الخوض فيما لم يأذن به الله من الصفات؛ كالتصريح بأنه حرف وصوت، ثم اضطروا الى القول: ليس متعاقباً ولا مرتباً وليس كمثله شيء..

فرآه المخالفون تناقضاً، وكان الحل الاشعري، فما هو؟

الحل الأشعري لقضية صفة الكلام:

الحنابلة -في نظر الاشاعرة- لم تتسع عقولهم لإثبات كلام بلا حرف ولا صوت رغم أنهم يقولون أنه قديم وليس كمثله شيء وغير مترتب ولا متعاقب، والاشاعرة لم تتسع عقولهم لإثبات كلام قديم غير مترتب ولا متعاقب وليس كمثله شيء ولكن بحرف وصوت.

فرأوا أن الحنابلة جمعوا بين النقيضين وأخذوا يبحثون عن مخرج لإثبات صفة قديمة لا بحرف ولا صوت غير مترتبة ولا متعاقبة ولا تؤدي الى حلول الحوادث بالله فقالوا بالكلام النفسي القديم.

فاثبتوا أن الكلام الحقيقي هو الكلام النفسي وبالتالي فكلام الله ليس بحرف ولا صوت بل صفة أزلية قائمة بذاته منزهة عن التقدم والتأخر ومنزهة عن السكوت النفسي بأن لا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه ومنزه عن الآفة الباطنية بأن لا يقدر على ذلك.

وهي صفة واحدة لا تتعدد ولكن لها تمام اعتبارية من حيث تعلقها:

فإن تعلقت بطلب فعل فهي أمر وأن تعلقت بطلب ترك فهي نهي.

ثم أثبتوا الكلام اللفظي الدال على الكلام النفسي وهو كلام يخلقه الله في غيره يدل على الكلام النفسي الصفة الازلية القائمة بالذات.

وبذلك حققوا- في نظرهم أموراً:

أولاً: أثبتوا صفة لله قديمة سموها الكلام.

ثانياً: نفوا عن القرآن أنه مخلوق.

ثالثاً: خرجوا من مسألة الحنابلة الذين يقولون بإثبات الصفة ولكن بكونها حرف وصوت على ما يترتب على ذلك من حلول الحوادث بالله وحصول الكلام متعاقباً- في

رأيهم- فوفقوا بين اثبات الصفة القديمة وحدوث الألفاظ، فكلام الله يطلق على الكلام النفسي القديم بمعنى أنه صفة قائمة بذاته كما يطلق على الكلام اللفظي بمعنى أنه خلقه وليس لأحد في أصل تركيبه كسب.

والألفاظ التي تقرأها تدل على الكلام القديم والكلام النفسي يدل أزلاً وأبداً على الواجبات والجائزات والمستحيلات فالكلام اللفظي يدل على الكلام النفسي دلالة عقلية التزامية بحسب العرف.

ومن ههنا ذكر الاشاعرة أن متعلق صفة الكلام القديم عام بالواجبات والجائزات والمستحيلات ولا تتناهى متعلقاته وهو واحد.

فالعلم تعلق على سبيل الكشف والكلام تعلق على سبيل الدلالة وقالوا أن للكلام تعلق تنجيزي قديم وتعلق تنجيزي حادث.

أما التعلق التنجيزي الحادث فالبنسبة للأمر والنهي ونحوها أما التعلق التنجيزي القديم فبالنظر لغيرها كالخبر والقرآن .

وبموضوع متعلق كلام الله تم الاشعريون نظريتهم في الحل لمسألة الكلام، بحيث يوفقون بين ظواهر النصوص ومدلولات العقول[1].

فنستطيع القول أن الحل الاشعري اعتمد على ثلاثة أسس:

الأساس الأول: إثبات الكلام النفسي وأنه الكلام الحقيقي عند الإطلاق.

الأساس الثاني: إثبات اللفظ الحادث المخلوق الدال على الكلام النفسي القديم القائم بالذات غير المخلوق.

الاساس الثالث: بيان تعلق الصفة وأنه عام تنجيزي قديم وتنجيزي حادث.

الرأي الراجح:

بعد هذا التطواف لا بد لي من ابداء الرأي وبيان الصواب من القول في صفة الكلام.

أنني أعتقد- بعد مطالعات كثيرة واستعراض أدلة الأطراف المختلفة، أن كلاً منهم خاض في الصفة- صفة الكلام- خوضاً أتى فيه بامر زائد على النص الصحيح الثابت.

فالذين قالوا هو بحرف وصوت، فلأنهم لم يتصوروا كلاماً من غير ذلك، ثم احتاجوا الى التأويل أنه ليس كمثله شيء.

والذين قالوا هو الكلام النفسي.. وقعوا في أمر- ولو لم يريدوه- وهو أنهم جعلوا الصامت

---

(١) انظر إبراهيم الباجوري، شرح جوهرة التوحيد ص١١٤ فما بعدها، ومحمود صالح البغدادي: إرشاد الأنام إلى عقائد الإسلام ٨٢-٨٦ والصاوي: محمد بن محمد المالكي شرح جوهرة التوحيد، دار الاخاء ص١٠٢، واللقاني: عبد السلام بن إبراهيم المالكي، أتحاف المريد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ط(٢) ١٩٩٥٥ ص١٠١ فما بعدها ومحمد محي الدين عبد الحميد، النظام الفريد المطبوع مع اتحاف المزيد ١٠٢ فما بعدها، والبوطي محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية ١٠٣-١٠٤ و ١٠٨.

والمتكلم سواء.. والصامت لا ينسب له كلام مهما زور في نفسه كلاماً.

فإنه وأن سمي ما زوره في نفسه كلاماً-وهذا ما اقام الاشاعرة الادلة عليه- لكنه ليس بالضرور أن يكون متكلماً.

أما قول المعتزلة والكرامية وغيرهم، فلا يلتفت إليه أصلاً، وسترد عليهم قولهم.

فالذين أميل إليه في هذه المسألة مستأنساً بما قاله ابن حجر:

إنت صفة الكلام صفة ازلية قائمة بذاته الله ﷻ، ليس كمثله شيء، لا يقال إنها بحرف وصوت لعدم ثبوت ذلك بالنص الصريح الصحيح المقطوع به.

ولا ينسب إليها تبعيض وتجزأ ولا تركيب ولا آلة إذ كما أنه ليس كمثله شيء فصفاته ليس كمثله شيء.

فكما نؤمن أننا نراه ﷻ يوم القيامة بلا مسافة ولا تحديد ولا تجسيم ولا كيف فكذلك يسمع كلامه لمن شاء .

كيف شاء، متى شاء، وهو ﷻ منزه عن مشابهة المخلوقات في ذاته وصفاته ومنزه عن حلول الحوادث به..

ومن ثم فإنه لا يجوز لنا أن نخوض في صفة الكلام وغيرها من الصفات بأكثر مما ورد في النص القطعي الثبوت..

وأما تخصيص كلامه بالكلام النفسي فهو أمر زائد على ما ورد في الشرع ولازم ذلك نسبة الصمت والسكوت له ﷻ.

وكذا نسبة الحرف والصوت تحتاج إلى نص صريح قطعي ولا يسلم بوجوده.

ومع هذا فلا بد من الالمام بما يلي:

ذكر الأدلة على إثبات أصل صفة الكلام إجمالاً وإثبات قدمها والرد على المعتزلة في نفس الصفة القديمة.

والإلمام بادلة الاشاعرة في إثبات الكلام النفسي وأنه الكلام الحقيقي وهذا ما سنفصله بالمسائل القادمة بإيجاز شديد .

خامساً: الأدلة على إثبات أصل صفة الكلام

١- الادلة النقلية

وهي كثيرة جداً منها:

قوله ﷻ ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[1].

قوله ﷻ ﴿وان أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله﴾[2].

قوله ﷻ ﴿وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد

(١) سورة النساء (١٦٤).

(٢) سورة التوبة (٦).

فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.. قال أني أعلم ما لا تعلمون﴾[١].

الاحاديث الكثيرة منها ما ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ خاطب في ليلة المعراج ربه وفرضت عليه الصلوات الخمس إذ ذاك.

ومازالت الرسل تحدث أقوامها عن ربها أنه أوحى إليهم يبلغونه للناس إما بمخاطبة الله إياهم وأما بخطابه ﷺ ملك الوحي[٢].

٢. دليل عقلي

أصل اثبات صفة الكلام سمعي لكن أورد الغزالي دليلاً عقلياً هو:

"من قال إني رسول الجبل إليكم فلا يصغى إليه لاستحالة الكلام والرسالة من الجبل، كذلك من أعتقد استحالة الكلام في حقه ﷻ استحال منه أن يصدق الرسول إذ المكذب بالكلام لا بد وأن يكذب بتبليغ الكلام فالرسالة عبارة عن تبليغ الكلام والرسول عبارة عن المبلغ.

أن الكلام للحي. إما كمال وإما نقص ولا يقال هو نقص فثبت بالضرورة أنه كمال فالله أولى به[٣] على الوجه الذي يليق به.

سادساً: أدلة قدم الصفة والرد على المعتزلة

أولاً: أدلة قدم الصفة.

من الكتاب.

قوله ﷻ: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾.

ففصل بين الخلق والأمر فدل على ان الأمر غير مخلوق لأن كلامه أمر ونهي وخبر..

٣- قوله ﷻ: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾.

فلو كان كلامه مخلوقاً لاحتاج في خلقه إلى قول يقول به كن واحتاج القول إلى قول ثالث إلى مالانهاية وهذا باطل فثبت أن القول الذي تكون به الأشياء المخلوقة غير مخلوق وهو كلامه القديم.

ب- من السنة

قول الرسول ﷺ: "فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه"[٤].

فلما كان من جملة أسباب فضل الله على خلقه قدمه ودوامه لأنه غير مخلوق وهم مخلوقون فكذلك القول في كلامه.

---

(١) سورة البقرة (٣٠).

(٢) انظر الباجوري، شرح جوهرة التوحيد ١١٤، وأبو المعالي الجويني العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، مكتبة الكليات الازهرية ١٩٧٩ ص٢٥ فما بعدها وانظر البيهقي، الاعتقاد على مذهب السلف باكستان ص٣٢ فما بعدها.

(٣) أبو حامد محمد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد ص٧٤. دار الكتب العلمية، بيروت ط(١) ١٩٨٣.

(٤) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٣٨) ولكن الحديث ضعيف وانظر الجامع الصغير وفيض القدير.

ج- الإجماع

من ذلك قول علي ﷺ لما أنكر عليه التحكيم والله ما حكمت مخلوقاً .

د. عقلاً

لو كان مخلوقاً لكان لا يخلو أن يكون جسماً قائماً بنفسه أو عرضاً معقولاً في غيره.

ويستحيل أن يكون جسماً كما أنه لا يجوز أن يكون بنفسه قائماً وأن يكون كلاماً لا المتكلم.

ويستحيل أن يكون عرضاً لأنه لو كان عرضاً لم يخل أن يكون الباري فاعلاً له في نفسه أو غيره أو لا في مكان ولا يفعله في نفسه لأنه ليس محلاً للحوادث، ويستحيل أن لا يفعله في شيء ويستحيل أن يخلقه بغيره لأن ذلك يوجب أن يكون صفة وكلاماً لمن فعله فيه ولما لم يجز أن يكون كلام الباري صفة لغيره وكلاماً لغيره لم يجز أن يكون مخلوقاً في غيره[1].

ثانياً: أدلة المعتزلة في حدوث الكلام والرد عليها[2].

أحتجوا بقوله ﷻ: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والكلام شيء فهو مخلوق.

الرد: المقصود بالكلام إذا قيل عنه شيء أي موجود ثابت فالله شيء لأنه موجود ثابت ولا يدل على أنه حادث.

فالله خالق كل شيء، عام أريد به الخصوص.

كقوله ﷻ ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ وقوله ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ولا تدخل نفسه في ذلك.

احتجوا بقوله ﷻ: ﴿وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ فوصف بالحدوث فهو مخلوق.

الرد: الآية رد عليهم لأنها تدل على أن من الذكر ما ليس بمحدث لأنه لم يقل ما يأتيهم من ذكر إلا كان محدثاً والذكر ههنا يراد به وعظ الرسول ﷺ ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾.

احتجوا بقوله ﷻ: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ والمجعول مخلوق لقوله ﷻ: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

الرد: ﴿إنا جعلناه﴾ أي سميناه وجعلوا الملائكة أي سمعوا الملائكة أو يقال إنا جعلنا قراءته وتلاوته بلسان العرب، والفائدة في ذلك بيان الفرق بينه وبين التوراة والإنجيل من حيث اللغة.

---

(١) انظر الباقلاني الإنصاف ٧١-٧٢ والباقلاني، تمهيد الاوائل وتلخيص الدلائل، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت ط١ ١٩٨٧ ص٢٦٨ فما بعدها. وعضد الدين الايجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب بيروت ص١٩٣.

(٢) المصادر السابقة والانصاف خاصة ص٧٢-٨٠.

والجعل إذا عدي إلى مفعول واحد كان ظاهره الخلق وإذا عدي إلى مفعولين كان ظاهره الحكم والتسمية.

ربما تكون هذه أهم أدلة المعتزلة على أن لهم أدلة أخرى مبسوطه في مكانها مع الرد عليها لا نطيل بذكرها.

سابعاً: أدلة الاشاعرة في إثبات الكلام النفسي

١- من الكتاب

أ- قوله ﷻ: ﴿فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً﴾.

كأنه قيل: فعاذا قال في نفسه في ذلك الإسرار.

٢- قوله ﷻ: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ولا نجواهم، بلى﴾.

وقوله ﷻ: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾.

وقوله: ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾.

٣- وقوله: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾.

والكل يعلم أن الله ما كذب المنافقين في ألفاظهم وإنما كذبهم بما تكنه ضمائرهم وأسرارهم.

٤- قوله ﷻ: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾.

٥- قوله ﷻ: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

٦- قوله ﷻ: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة..﴾ فجعل الحكم لصدق الكلام القائم في القلب.

ب- من السنة

قوله ﷺ عن ربه: "أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...".

ج- من الآثار

قول عمر: "زورت في نفسي كلاماً".

د- من كلام العرب

بيت الأخطل: أن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان عليه دليلاً

وإنما يستشهدون بهذا البيت لكون القائل عربي مما يدل أن هذا معروف عند العرب[١]. لا أنهم يأخذون منه عقيدة.

إذن: "فدلالة الكلام اللفظي على الكلام النفسي دلالة باللزوم فإنه لما تعلقت الصفة القديمة بمتعلقاتها جعلت معان مخصوصة عبر عنها بالألفاظ، فمدلول اللفظ المعنى الذي حصل من تعلق الصفة كالطلب على جهة كذا أو الاخبار على جهة كذا[٢]".

وهنا يرد تساؤل مهم:

إذا كان الكلام النفسي يسمى كلاماً افليس من باب أولى أن يكون الكلام اللفظي كلاماً فكيف تخصصون كلام الله بالنفسي.. نجد الباقلاني يقول[٣]:

أن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس لكن جعل عليه أمارات تدل عليه فتارة يكون قولاً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما اصطلحوا عليه وجرى عرفهم به وجعل لغة لهم، وقد أخبر ﷻ أنه أرسل كل رسول بلسان قومه، فأرسل موسى بلسان عبراني فأفهم كلام الله القديم القائم بالنفس بالعبرانية وهكذا قل في جميع الانبياء كل بلغته، فلغة العرب التي أفهم بها الرسول ﷺ قومه كلام الله القديم القائم بالنفس غير لغة العبرانيين لكن الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير وقد يدل على الكلام القائم بالنفس الخطوط المصطلح عليها بين كل أهل خط فيقوم الخط في الدلالة مقام النطق باللسان "هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق" فقام الخط مقام النطق، والخطوط تختلف بحكم الاصطلاح والمواضعة وقلة الحروف وكثرتها.

فصح أن الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس دون غيره وإنما الغير دليل بحكم التواضع والاصطلاح ويجوز أن يسمى كلاماً إذ هو دليل على الكلام لا أنه نفس الكلام. وكذلك قد يدل على الكلام الحقيقي القائم بالنفس الرموز والاشارات: ﴿آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ أي لا تفهم الكلام القائم بالنفس باللسان وإنما أفهمه بالرمز وكذلك الاخرس الذي لا ينطق باللسان ولا يسمع الصوت إنما يفهمنا كلام القائم بنفسه ونفهمه كلامنا القائم بأنفسنا بالاشارة.

فحقيقة الكلام في حق الخالق والمخلوق هو القائم بالنفس لكن جعل لنا دلالة عليه تارة بالصوت والحروف نطقاً وتارة بجمع الحروف بعضها إلى بعض وتارة إشارة ورمزاً.

فحقيقة الكلام القائم بالنفس موجود عند الحرف والصوت لكن الخلق كلامهم مخلوق كما هم وكلام الله ليس بمخلوق كما هو شأنه ﷻ.

---

(١) انظر فيما سبق الالوسي أبو الفضل شهاب الدين، تفسير الالوسي ١/١٠ والباقلاني، الانصاف ١٠٩-١١٠.

(٢) الظواهري، التحقيق التام ص٨٠.

(٣) الانصاف ١٠٦-١٠٨ بتصوف .

وتساؤل ثان مهم:

كيف كلم الله موسى تكليماً؟ على هذا الأساس:

يقول عضد الدين الإيجي:

"وقالت المعتزلة أصوات وحروف يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي ﷺ وهذه كلها حوادث.

وهذا لا ننكره لكنا نثبت أمراً وراء ذلك وهو المعنى القائم بالنفس ونزعم أنه غير العبارات".

ثم يقول:

"فإذن هو صفة ثابتة قائمة بالنفس ثم نزعم أنه قديم لا متناع قيام الحوادث بذاته ﷻ:

ثم يقول:

"إذا عرفت هذا فاعلم ما يقوله المعتزلة وهو خلق الاصوات والحروف وكونها حادثة قائمة فنحن نقول به ولا نزاع بيننا وبينهم في ذلك أما ما نقوله من كلام النفس فهم ينكرون ثبوته فصار كل النزاع نفي المعنى وإثباته"[1] أ.هـ.

وهذا يعود بنا الى التفصيل الذي أوردناه في كيفية الحل الاشعري التوفيقي. ولكنه لا يجيبنا صرحة كيف كلم الله موسى وإن أثاروا تلميحاً. ويرى الألوسي أن لله كلاماً بمعنيين:

الأول: بمعني التكلم، فلله ﷻ صفة أزلية منافية للآفة الباطنية التي هي بمنزلة الخرس في التكلم الإنساني اللفظي ليس من جنس الحروف والألفاظ أصلاً وهي واحدة بالذات تتعدد تعلقاتها بحسب تعدد المتكلم.

الثاني: كلام بمعنى المتكلم به، فلله ﷻ كلمات غيبية وهي ألفاظ حكمية مجردة عن المواد مطلقاً وتلك الكلمات أزلية مترتبة غير متعاقبة في الوضع الغيبي...

والقرآن كلام الله المنزلة بهذا المعنى.

فلله كلام بمعنى التكلم وكلام بمعنى المتكلم به. وأنه بالمعنى الثاني لم يزل متصفاً بكونه أمراً ونهياً وخبراً، وأن الكلام النفسي بالمعنى الثاني حروفه غير عارضة للصوت في الحق والخلق غير أنها في الحق كلمات غيبية مجردة عن المواد ولا يشترط اللفظ الحقيقي في كون الكلمة حقيقة"[2] أ. هـ.

وهنا يعود بنا إلى الكلام النفسي وينسب الآلوسي كل ما سبق للأشعري نفسه ووفق هذا نستطيع أن نفسر تكليم الله لموسى عليه السلام وأنه كلمه بكلامه الحقيقي القديم المسموع المجرد عن الصوت والتعاقب ليس كمثله شيء.

وقد نقل عن الاشعري جواز سماع كلام الله من قبل موسى من غير صوت كمل عقل رؤية ما ليس جسماً ولا لوناً فليعقل سماع ما ليس صوتاً، واختار هذا الغزالي، وبنى عليه السنوسي في الكبرى فقال: وليس معنى كلم الله موسى

(١) عضد الدين تالايجي، المواقف ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) الآلوسي، روح المعاني ١١/١.

تكليماً أنه ابتدأ الكلام له بعد أن كان ساكناً ولا أنه أنقطع بعدما كلمه ﷻ عن ذلك...

ومنع الاسفرايني سماع ما ليس بصوت، فعنده ومن معه، سمع موسى صوتاً دالاً على كلام الله ﷻ النفسي[1]. أ.هـ.

فالاسفرايني والايجي متقاربان ويقربان من المعتزلة.....في هذه

والحق الذي لا مريه فيه أن الكلام النفسي الذي قرره الاشاعرة لا يفسر لنا كيف كلم الله موسى تكليماً، وأن القول بالكلام النفسي. وأن ثبتت به صفة الكلام لكن لا يتم به إثبات صفة أنه متكلم.

والاشاعرة أنفسهم يثبتون أنه متكلم وأن له صفة الكلام ويعدون صفة الكلام من صفات المعاني وكونه متكلماً من الصفات المعنوية... ففرقوا بينهم.

وقد ثبت أن الذي يزور كلاماً دون أن يبديه لا ينسب له شيء.

فالحل الامثل هو كما نقل عن الاشعري نفسه جواز سماع كلام الله من غير صوت. كما عقل رؤية ما ليس جسماً..

(١) انظر في ذلك أيضاً شرح الشيخ الطيب على العقائد النسفية ٢/٥٤١-٥٤٢.

المطلب الثاني

في أصل اللغات

ما اللغة؟ ما أصلها؟ ما دليل كل رأي؟

ثلاثة مسائل سنناقشها بإيجاز قبل أن نصل إلى تحديد العلاقة بين أصل اللغة وصفة الكلام.

أولاً: تعريف اللغة

قال أبو الفتح ابن جني في الخصائص: حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. ثم قال: وأما تصريفها فهي فعله من لغوت أي تكلمت، وأصلها لغوة ككرة وقلة وثبة، كلها لاماتها واوات [لقولهم كروت بالكرة، وقولت بالقلة، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب]. وقالوا فيها لغات ولغون كثبان وثبون. وقيل: منها لغي يلغي. إذا حذ"، قال:

ورب أسراب حجج كظم

عن اللغا ورفث التكلم

وكذلك اللغو، قال ﷻ ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾. أي بالباطل.

وفي الحديث: من قال في الجمعة صه فقد لغا: أي تكلم. انتهى كلام ابن جني.

وقال إمام الحرمين في البرهان: اللغة من لغي يلغى من باب رضي إذا لهج بالكلام، وقيل من لغى يلغى.

وقال ابن الحاجب في مختصره: حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى.

وقال الاسنوي في شرح منهاج الاصول: اللغات: عبارة عن الالفاظ الموضوعة للمعاني[١].

ثانياً: الآراء في أصل اللغات

آراء عدة تعود إلى نظريتين رئيسيتين في بيان أصل اللغة.

الرأي الأول: أنها توقيف.

وإلى هذا ذهب ابن فارس وآخرون لقوله ﷻ: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة...﴾ وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها أو عرضهن اللتان تقال لما لا يعقل لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل، فغلب ما يعقل وباب التغليب سنة متبعة.

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن فارس إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون أو يتفقون ثم احتجاجهم بأشعارهم.

ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة ولا فرق[٢].

ولكن إذا جاءت اللغة توقيفاً فهل جاءت جملة واحدة؟

يرى ابن فارس ان الله وقف آدم على ما شاء أن يعلمه أياه مما احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر .

ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء – والحديث عن اللغة العربية– ما شاء ان يعلمه حتى أنتهى الأمر إلى نبينا ﷺ فأتاه الله عز وجل من ذلك ما لم يؤت أحداً قبله.

ثم قر الامر فلا نعلم لغة من بعده حدثت[٣].

الرأي الثاني: أنها اصطلاح

إذا كان ابن فارس الاشعري يرى أن اللغة توقيف فإن عصرية ابن جني المعتزلي يرى أنها اصطلاح ومواضعة لا وحي وتوقيف وأن كان في آخر حياته تردد.

وذكر ابن جني أن الاحتجاج بقوله ﷻ: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ على التوقيف غير صحيح لأنه يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على أن واضع عليها فبطل الاستدلال لتطرق الاحتمال[٤].

أقول: وواضح أن تأويل ابن جني فيه من التكلف ما فيه وإنما هو متأثر بفلسفة سابقة لا مؤثرة ومما يدل على ذلك أنه ذكر تردده في أصل اللغة وغيره.

فذكر انه يفكر في هذه اللغة الشريفة وما فيها من حكمة ودقة وارهاف... وفصاحة

---

(١) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة العربية نشر المكتب العصرية، صيدا ١٩٨٦ ج١ ص٨٠٧.

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق أحمد صقر نشر عيسى البابي الحلبي– القاهرة– بلا تاريخ ص٧.

(٣) ابن فارس، الصاحبي ص٨.

(٤) أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار ط٢ بلا مكان ولا تاريخ ح١/ص٤٠-٤١ .

وخصاص ولطف... وما ورد من أخبار مأثورة أنها من عند الله فيقوى عنده أعتقاد أنها توقيف ثم يتذكر ما عليه أصحابه من أنه لا مانع أن يكون الله لحكم بالغة خلق أناساً أرهف حساً ومعنى والطف أذهاناً فتواضعوا على هذه اللغة فأقف معه بين الخلتين حسيراً[١].

فيتضح من هذا النص تأثرا ابن جني بفلسفة أصحابه وقوة رأي التوقيف في نفسه.

ثم أن ابن جني يذكر راياً آخر سنذكره في موضعه آراء أخرى متفرعة عما سبق:

تفرع من هذين الرأيين رأيان آخران فأدرج الأربعة معاً مع رأي آخر لم يقره أحد من المحققين.

قال الرازي:

الألفاظ أما أن تدل على المعاني بذواتها وهو مذهب عباد بن سليمان.

أو بوضع الله أياها، وهو مذهب الاشعري وابن فورك.

أو بوضع الناس وهو مذهب أو هاشم.

أو يكون البعض بوضع الله والباقي بوضع الناس وهو مذهب أبو اسحاق وقوم.

وقال قوم: الوضع من الناس والتتمة من الله ﷻ.

والمحققون متوقفون في الكل إلا مذهب عباد فإنه فاسد قطعاً[٢].

(١) ابن جني، الخصائص ٤٧/١ .

(٢) السيوطي، المزهر ١٦/١.

رأي سادس: أنها محاكاة ومواضعة:

ذكر ابن جني رأياً آخر هو أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وخرير الماء ثم ولد عن ذلك فيما بعد اللغات ثم يقول وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل[٣].

ووجدنا للرافعي فلسفة خاصة جمعت بين هذا الرأي والرأي القائل بالمواضعة مع فلسفة هذا الرأي وبنائه على عامل الاجتماع.

فهي عنده مواضعة واصطلاح متأثرة بعاملين رئيسيين:

العامل الأول: الاجتماع إذ من أصول الحياة الاجتماع. ومن أصول الاجتماع اللغة، وهذه من أصول المواضعة هي:

"تابعة لاحوال الاجتماع في البسط والقبض وما يتقلب عليه ويحدث فيه، بحيث لا تخرج عن أن تكون مرآة تظهره كما هو في نفسه مهماً تنوعت أشكاله واختلفت أزياؤه- كان لا بد أن تتغير بحسبه مادامت مستعملة فيه، وهذا التغير هو حقيقة الاصطلاح والمواضعة..."[٤].

العامل الثاني: محاكاة الاصوات والمسموعات كدوي الريح وصهيل الفرس وشحيح الحمار وخرير الماء، وإلى هذا الوجه كما ذكرنا يرد بعض العلماء أصل اللغات.

(٣) ابن جني، الخصائص ٤٦/١-٤٧.

(٤) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان ط(٤) ١٩٧٤ ج٦٣/١.

لكن الرافعي لا يعتبر هذا الاصل أصلاً إنما أحد عاملين من عوامل كون اللغة مواضعة، يقول:"ولما ادرك الانسان حقيقة هذا الاستعمال وتقلب فيه واصطلحت عليه الجماعات منه فتق له استعداده للالهام ان يتأمل في الاصوات الطبيعية الاخرى، من قصف الرعد، وانقضاض الصواعق، وخرير الماء، وهزيز الريح، وحفيف الشجر، واصطكاك الاجسام، وما اليها من اصوات هذه اللغة الجامدة وهي ربما تبلغ المائة عداً-فقلدها واهتدى بها الى مخارج حروف اخرى غير التي تتهيأ في الاصوات الحيوانية، فدار بها لسانه، وابتدأ يجمع بينها على طريق المحاكاة، دالاً بالصوت على حدثه، ولا يزال ذلك طبيعة في لغة الاطفال،

فهم يسمون الدجاجة، كاكا، والشاة: ماما، والسنور: نو..نو، وذكر الجاحظ في الحيوان: أن طفلاً سئل عن اسم أبيه فقال: "وو..وو"!، وكان أبوه يسمى كلباً.

وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة، أي حين كانت حاجات الاجتماع قليلة لا تتجاوز الاشارة الى امهات المعاني الطبيعية بالمقاطع الثنائية، كأنهمال المطر، وانفلاق الحجر، وانكسار الشجر، وأمثالها، فلما بدأ الاجتماع يرتقي بنسبة أحوال الانسان يومئذ، بدأ الاختراع الحقيقي في اللغة[1]..أ.هـ.

ويزيد الرافعي وجهة نظره بياناً مناقشاً القائلين بالتوقيف فيقول:"اذا تدبرت ما تقدم رأيت القول بأن اللغة وحي وتوقيف انما هو من باب التقوى التاريخية لا اكثر، لأن الانسان خلق مستعداً منفرداً ليصير بعد ذلك عالماً مجتمعاً، وليجري في كما له المقسوم له على سنة الله التي لم تتبدل ولن تجد لها بديلاً، وهذه السنة هي أن المتغير لا يوجد كاملاً، بل لابد له من نشأة يمر في ادوارها حتى يتحقق معنى التغير فيه، ولعل أصل هذا المذهب كان مبالغة في تصور الاستعداد الانساني، لأنه الهام لامرية فيه ولذلك ترى أهله منقسمين: فمنهم من يقول بأن الانسان الهم أصول المواضعة، ومنهم من يقول بأنه ألهم اللغة نفسها.

والحقيقة أن الانسان ملهم بفطرته أصول الحياة، وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض ادواتها التي تعين عليها، ولذا تراها في كل أمة على مقدار ما تبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفاً، واذ كان من أصول الحياة: الاجتماع، ومن أصول الاجتماع: اللغة، وهذه من أصولها المواضعة"[2].

وسنرى مناقشة موجزة لمضمون كلام الرافعي في المطلب الثالث الآتي.

ثالثاً: الرأي الراجح

والذي يرجحه النظر في هذه الآراء والله أعلم، هو ان أصل اللغة توقيف لقوله ﷻ: ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ ثم للأدلة الأخرى التي سنذكرها، حتى أن ابن جني نفسه لم ينكر قوة

(١) الرافعي، تاريخ آداب العرب ١/٦٠.

(٢) الرافعي، تاريخ آداب العرب ١/٥٩.

هذا الاستدلال وأنه لولا ما يذكر من رأي أصحابه لقال به، ولكن اللغة تتطور وتنمو بعاملين هما العاملان اللذان ذكرهما الرافعي: الاجتماع ومحاكاة الاصوات، وبذلك نجمع بين الآراء والله أعلم...

وقد لا يوافقنا أهل الاختصاص في هذا.

رابعاً: الأدلة:

١- أدلة القائلين بالتوقيف:

أحتج القائلون بالتوقيف بوجوه:

أولها- قوله ﷻ: ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ فالاسماء كلها معلمة من عند الله بالنص، وكذا الأفعال والحروف، لعدم القائل بالفصل. ولأن الأفعال والحروف أيضاً أسماء، لأن الأسم ما كان علامة، والتمييز من تصرف النحاة. لا من اللغة، ولأن التكلم بالاسماء وحدها متعذر.

وثانيها- أنه ﷻ ذم قوماً في إطلاقهم أسماء غير توقيفية في قوله ﷻ: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها﴾ وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية.

وثالثها- قوله ﷻ ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ والالسنة اللحمانية غير مرادة لعدم أختلافها، ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر، فالمراد هي اللغات.

ورابعها- وهو عقلي- لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة وكتابة ويعود إليه الكلام، ويلزم أما الدور أو التسلسل في الأوضاع، وهو محال، فلا بد من الانتهاء إلى التوقيف[1].

٢- أدلة القائلين بالاصطلاح:

احتج القائلون بالاصطلاح بوجهين:

أحدهما- لو كانت اللغات توقيفية لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف (أي الرسول على اللغة) والتقدم باطل، وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية، فلا بد من واسطة بين الله والبشر، وهو النبي لاستحالة خطاب الله ﷻ مع كل أحد، وبيان بطلان التقدم قوله ﷻ: ﴿وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة.

والثاني- لو كانت اللغات توقيفية فذلك إما بأن يخلق الله ﷻ علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الالفاظ لكذا، أو في غير العاقل، أو بالا يخلق علماً ضرورياً أصلاً، والأول باطل، وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة، لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكون الله وضع كذا لكذا كان علمه بالله ضرورياً، ولو كان كذلك لبطل التكليف. والثاني باطل لأن غير العاقل لا يمكنه أنها تمام هذه الالفاظ. والثالث باطل، لأن العلم

(١) السيوطي، المزهر ١/١٧-١٨.

بها إذا لم ضرورياً احتيج الى توقيف آخر، ولزم التسلسل[١].

ثم أن لكل فريق ردود ومناقشة لا نطيل بذكرها ...

المطلب الثالث

في علاقة أصل اللغة بصفة الكلام وقدم القرآن

أولاً: جدوى البحث وعلاقته بالدين والفلسفة

هل للبحث في أصل اللغة جدوى وبالتالي هل للبحث في أصل اللغة علاقة أو أثر في صفة الكلام؟

"[إن] البحث في أصل اللغات ووضع الألفاظ وهو في باب اللغة من قبيل البحث في الغيبيات (الميتافزيك) ويكا يكون الخوض فيه عملاً قليل الجدوى ضعيف النتائج وضرباً من الافتراض والتخيل ذلك أن نشأة اللغات الأولى مغيبة عنا، بيننا وبينها- كما هي الحال في جميع البدايات- حلقات منقطعة يتعذر وصلها ولذلك لم يفتر الخلاف بين الباحثين في هذا الموضوع قديماً وحديثاً.

وأن النظرية الطبيعية التي حاول أصحابها أن يعللوا فيها نشأة أصول الألفاظ الأولى بمحاكاة أصوات الطبيعية لا تكاد تثبت للحجة والدليل ولا تصدق إلا في القليل النادر من ألفاظ كل لغة، فإذا قلنا أن (قط) وما يتفرع منها من ألفاظ والقص، والكسر، والانين، والحفيف، والقلقلة، والصليل، واضرابها تحكي بأصوات حروفها أصوات الأحداث التي تدل عليها في اللغة العربية لا شك أنها محدودة قليلاً[٢]".

"إن علماء اللغة المحدثين قد أخرجوا البحث في أصل اللغة وألفاظها ونشأتها الأولى من مباحث علم اللغة كسائر المباحث التي هدفها معرفة بداية الحياة الإنسانية والاجتماعية التي اصبح البحث فيها داخلاً في نطاق الفلسفة أكثر من أن يكون من أختصاص العلم أضف إلى ذلك قلة جدوى هذا البحث وقد كان هذا الموقف نفسه موقف كثير من علماء السلف في تاريخنا فقد قال ابن السبكي: "الصحيح عندي ان لا فائدة لهذه المسألة" كما نقل عنه السيوطي وعقب على ذلك بقوله: "وهو ما صححه ابن الانباري وغيره ولذلك قيل: ذكرها في الأصول فضول"[٣]أ. هـ.

أعطانا هذا النص والذي قبله تصوراً حول اصول اللغة يتضمن آمرين.

الأول: أن لا جدوى من البحث فيها.

الثاني: أنها من الأمور الميتافيزيقية وأن علاقتها بالفلسفة ألصق من اللغة .

---

(١) السيوطي/ المزهر ١٨/١.

(٢) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر ط(٧) ١٩٨١ ص٨٦ فما بعدها.

(٣) المصدر السابق ص٨٩.

ووجدنا الشيخ صبحي الصالح يتابع ابن جني في التواضع إلا أنه يحاول أيضاً ربط هذه القضية بالأديان والفلسفة فيقول[1]:

"لقد ظل العالم غافلاً عن تلك الرموز اللغوية حتى أواخر القرن السابع عشر، فكان يحاول تأويل نشأة اللغات في سذاجة عجيبة، حتى أوشك كثير من العلماء أن يجزموا بأن العبرية لغة الوحي هي لغة الإنسانية الأولى التي تشعبت منها لغات العالم المعروفة كلها. وكان على آباء الكنيسة أن يسندوا إلى الكتاب المقدس لتأييد هذا الرأي، وقد وجدوه في سفر التكوين: والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان. فوضع آدم اسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول". وكذلك استند العرب من قبل الى اية قرآنية حيث مال كثير منهم الى أن لغة العرب توقيف لا إصطلاح، وخطر ابن جني إلى تأويل تلك الآية على غير ما فهمها عليه أشياخه، فنسب إلى أكثر أهل النظر القول بأن أصل اللغة تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف، ثم قال: " إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله ﷺ: ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾. وهذا لا يتناوله موضوع الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها".

فإذا استثنينا رأي أي هذا العبقري ابن جني الذي سبق الى بالقول بوضع اللغة، وبأن وضعها لم يكن في وقت واحد، بل على دفعات إذ تلاحق تابع منها بفارط وأنها بدأت بصورتها الصوتية السمعية فكان اصل اللغات كلها الاصوات المسموعة، واستثنينا أيضاً آراء من تابع ابن جني على هذا المذهب السديد، وجدنا أئمة العربية الباقين يكادون يطبقون على أن اللغة إلهام وتوقيف، ويكادون لا يختلفون في تصورهم نشأة اللغة الإنسانية عما ظل سائداً في الغرب حتى أواخر القرن السابع عشر في الاوساط الكنسية إلا في فرق ضئيل لا يؤبه له: أن لغة الوحي في نظر الإسلام كانت لغة القرآن، على حين كانت في نظر آباء الكنيسة لغة الكتاب المقدس" أ. هـ.

وبعد هذا وجدنا صبحي الصالح يصل إلى ما وصل إليه المبارك أو تابع عليه غيره من العلماء أن لا جدوى فيقول: "لقد بات لزاماً علينا تجديد البحث في فقه اللغة، فليس يعنينا أن نتقص أصل اللغة الغامض المجهول" أ. هـ.

أردت مما سبق أن أزيد مسألة أصل اللغة بياناً مع بيان جدواها وآثارها وعلاقتها بالفلسفة والدين لندخل في صلب بحثنا: ما علاقة اصل اللغة في صفة الكلام.

---

(١) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين بيروت ط(١١) ١٩٨٦ ص٣٣-٣٤.

ثانياً: العلاقة بين أصل اللغة وصفة الكلام

لقد بينا أن هناك ثلاثة آراء معتبرة في صفة الكلام لله ﷻ:

رأي الحنابلة القائلين بأنه حرف وصوت قديم.

رأي المعتزلة القائلين بأنه حرف وصوت محدث مخلوق.

رأي الأشاعرة القائلين بأنه كلام نفسي قديم قائم بالذات تدل عليه الحروف والاصوات الحادثة.

ورجحت أنها صفة قائمة بذات الله لا يقال انها بحرف ولا صوت كما لا يقال انه كلام نفسي أو غيره، وليس كصفة كلام البشر، فلا يتصور فيها التعاقب والترتيب فكما أنه ذاته ليس كمثلها شيء...فكذلك صفته.

وعلى هذا فما هي العلاقة بين صفة الكلام وأصل اللغة؟ نستطيع ان نحدد العلاقات الآتية:

علاقة التلازم الأولى (الحنابلة): بعد هذا أعتقد أن العلاقة باتت واضحة فلقد كان الحنابلة أكثر حرصاً على القول بأن اللغة توقيف ووحي لأن هذا ينسجم تماماً مع قولهم بأن كلام الله قديم بحرف وصوت فما دام أن كلام الله قديم بحرف وصوت فاللغة توقيف منه وليس باصطلاح وتواضع.

ولذا وجدنا ابن تيمية يقول: "فمن قال أن حروف المعجم كلها مخلوقة وأن كلام الله ﷻ مخلوق فقد قال قولاً مخالفاً للمعقول الصريح، والمنقول الصحيح، ومن قال نفس أصوات العباد أو مدادهم أو شيئاً من ذلك قديم فقد خالف أيضاً أقوال السلف، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد. وكان مبتدعاً قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين، ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين، بل الأئمة الأربعة وجمهوراً صحابتهم برئيون من ذلك. ومن قال ان الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين، فقد ابتدع قولاً باطلاً في الشرع والعقل.

ومن قال ان جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة، وأن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقاً، والحروف المنتظمة فجزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب.

واذا قال ان الله هدى عباده وعلمهم البيان، فأنطقهم بها باللغات المختلفة، وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التي هي معاني كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب"[1].

ان كلام ابن تيمية واضح في أن أصل اللغات غير مخلوق وأنه توقيف وأن الله تكلم بالحرف والصوت قديماً، فهو حريص اذن على القول بتوقيف اللغة.

وقد يقول قائل ان الحق معهم في أن اللغة توقيف، فلماذا تقول انهم متأثرون؟ أقول: لأنه لو افترضنا جدلاً ان صفة الكلام محدثة مخلوقة لا دعى الخصم أن هذا دليل على وضع اللغة.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى ١٢/٥٤-٥٥.

علاقة التلازم المقابلة-المعتزلة:

نجد في مقابل الرأي السابق رأي المعتزلة القائلين بأن اللغة اصطلاح وتواضع وهم القائلون بأن الله متكلم لا بصفة كلام وانما بحروف وصوت مخلوقين وعلى هذا الأساس فلا شك في حرصهم على القول بان اللغة اصطلاح وتواضع والا نسفت نظريتهم ولذا وجدنا ابن جني يتأرجح بين أدلة التوقيف وأدلة الاصطلاح ويترجح له هذا الرأي لا لشيء الا لأن أصحابه قالوا بذلك.

فكان المعتزلة بذلك متأثرين بفلسفة خارجية لا منحازين لأدلة علمية، وكانت العلاقة بين أصل اللغة والصفة واضحة عندهم، فبما أن كلام الله حادث ليس بقديم فكذلك اللغة ليست بتوقيف.

العلاقة غير المتأثرة (الأشاعرة):

الأشاعرة حلوا هذا الاشكال وخرجوا منه غير متأثرين ولا مبالين أكانت اللغة اصطلاحاً أم كانت توقيفاً وان كانوا قالوا بالتوقيف كأثر عن بحث في الأدلة العلمية الموضوعية لا كأثر من خضوع لرأي فلسفي أو عقدي مسبق، فلو صح في النقل أو العقل أن اللغة اصطلاح ما كان ذلك ليؤثر على صفة الكلام في شيء ومن هنا كانت غير متأثرة، وكانت مؤثرة لأنها انطلقت علمياً موضوعياً متبعاً للأدلة في تحديد أصل اللغة.

والسؤال كيف حل الأشاعرة هذا الاشكال؟

لقد كان ذلك بقولهم بالكلام النفسي. قال الباقلاني:

"ويجب أن يعلم أن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، فتارة تكون قولاً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما اصطلحوا عليه وجرى عرفهم به وجعل لغة لهم وقد بين ﷻ ذلك: ﴿وما أرسلنا من رسول ولا بلسان قومه ليبين لهم﴾ فأخبر ﷻ أنه أرسل موسى عليه السلام الى بني اسرائيل بلسان عربي فأفهم كلام الله القديم القائم بالنفس بالعبرانية وبعث عيسى عليه السلام بلسان سرياني فأفهم قومه كلام الله القديم بلسانهم وبعث نبينا ﷺ بلسان العرب فأفهم قومه كلام الله القديم القائم بالنفس بكلامهم..."[1].

ثم يبين الباقلاني أن الخطوط والرموز والاشارات والألفاظ انماتدل على الكلام النفسي بحسب تواضع أهل كل لغة واصطلاحهم والكلام موجود في النفس ولو لم يعبر عنه باحدى الطرق...

تبين لنا من النص السابق أمور عدة:

أولاً: طبيعة الكلام النفسي لا يؤثر فيها القول بأصل اللغة سلباً أو ايجاباً.

ثانياً: كان لذلك عند الأشاعرة حرية في استعمال المصطلحات

(١) الباقلاني، الانصاف ١٠٦-١٠٧.

فعندما يقول الباقلاني: "وما اصطلحوا عليه وجرى عرفهم به" لا يريد بذلك أن اللغة اصطلاح والدليل قوله بعده (وجعل لغة لهم) كل ما في الأمر يريد أن يوضح الواقع الموجود في الظاهر من تعارف الناس على كيفية الخطاب فيما بينهم للدلالة على الكلام النفسي الذي هو الكلام الحقيقي. ويوضح الفارق بين الكلام النفسي واللفظ الدال عليه.

ومما يوضح أن لا علاقة متأثرة في ذلك أن القرآن كتب في اللوح المحفوظ هذه الكتابة حادثة والمفروض أنه كتب باللغة العربية فما كان هذا ليؤثر على قدم القرآن لأنه كلام الله القديم النفسي القائم بالذات.

يقول الباقلاني: "ويجب أن يعلم أن كلام الله مكتوب في المصاحف على الحقيقة كما قال ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾ وهو في مصاحفنا مكتوب على الوجه الذي هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

وكلام الله الذي هو مكتوب في اللوح المحفوظ هو القرآن المكتوب في مصاحفنا شيء واحد لا يختلف ولا يتغير"[1].

٤. وكذلك ووفق الرأي الذي رجحته في فهم صفة الكلام وأنها أزلية قائمة بذات الله، لا يقال بحرف وصوت، لا نجد لها تأثيراً في اثبات أن اللغة توقيف أو اصطلاح، فأياً كان الأمر، فان ذلك لا يؤثر على الصفة ولا العكس.

وهكذا نصل الى بيان علاقة أصل اللغة بقدم القرآن وصفة الكلام بايجاز من غير اخلال ان شاء الله.

ولم أجد من سبق الى بيان هذه العلاقة بين صفة الكلام وأصل اللغات، وتأثر المدارس اللغوية بالمدارس العقدية. فان أصبت فمن الله وان أخطأت فمن نفسي وأستغفر الله.

الخاتمة

بعد هذا التطواف السريع في صفة الكلام وعلاقتها بأصل اللغة نجمل ما وصلنا اليه بنقاط سريعة:

أولاً: صفة الكلام صفة أزلية قائمة بذات الله قديمة لا تتجزأ ولا تتبعض ولا تقاس على صفة كلام البشر، وهي ثابتة عقلاً ونقلاً والحجة على المعتزلة ومن وافقهم في ذلك.

ثانياً: اطلعنا على عدة آراء في صفة الكلام تعود الى اربعة آراء:

القول بقدم الصفة وهي حرف وصوت.

القول بقدم الصفة وهي الكلام النفسي.

القول بأن لا صفة وأن كلام الله مخلوق.

القول بالصفة الحادثة.

ثالثاً: اطلعنا على الحل الأشعري فأثبت الصفة الأزلية وأثبت ما يدل عليها، مما هو حادث، وتبين لنا أن القول بقدم الصفة مع التصريح التام بالحرف والصوت أمر فيه ما فيه.

---

(١) الباقلاني الانصاف ص٩٣.

رابعاً: اطلعنا على أصل اللغات واطلعنا على عدة آراء في ذلك:

التوقيف.

الاصطلاح.

المحاكاة للاصوات.

الجمع بين الاصطلاح والمحاكاة مع تأثير علم الاجتماع.

البدء من الله والتتمة من الناس أو العكس.

خامساً: رجح لدى توقيف أصل اللغة مع تطورها نتيجة الاجتماع والمحاكاة...

سادساً: بحثنا في العلاقة بين الصفة وأصل اللغة. فوقفنا على علاقتين متأثرتين متعارضتين وعلاقة مؤثرة غير متأثرة كما يلي:

فالقائلون بقدم الحرف والصوت قالوا بتوقيف اللغة.

القائلون بحدوث القرآن كان لابد لهم أن يقولوا بحدوث اللغة واصطلاحها.

الأشاعرة غير المتأثرين لأنهم حلوا الاشكال بالقول بالكلام النفسي.

هذا مجمل ما توصلت اليه في هذا البحث نسأل الله السداد والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المصادر والمراجع

١. الآلوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني، دار احياء التراث، بيروت عن الطبعة المنبرية، بلا تاريخ.

٢. الأشعري أبو الحسن علي بن اسماعيل، الابانة عن أصول الديانة، دار الكتاب العربي- بيروت، ط (١) ١٩٨٥.

٣. الايجي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الايجي، المواقف في علم الكلام. عالم الكتب-بيروت- بلا تاريخ.

٤. الباجوري، أبراهيم الباجوري -شرح جوهرة التوحيد، تنسيق وتهذيب محمد اديب الكيلاني- حماة.

٥. البخاري محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، مطبوع مع فتح الباري المطبعة السلفية.

٦. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر، أصول الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، عن المطبعة التركية ١٩٨١.

٧. الباقلاني-أبو بكر بن الطيب، الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به-تحقيق محمد زاهد الكوثري، مؤسسة الخانجي ط(٢) ١٩٨٢.

٨. تمهيد الاوائل وتخليص الدلائل، مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت ط(١) ١٩٨٧.

٩. البوطي محمد سعيد رمضان، كبري اليقنيات الكونية، دار الفكر دمشق ط(٦) ١٣٩٩.

١٠. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، الاعتقاد على مذهب السلف باكستان.

١١. البيهقي، الأسماء والصفات، دار احياء التراث العربي تحقيق الكوثري.

١٢. التفتازاني، سعد الدين، شرح العقائد النسفية، مكتبة خير كثير، باكستان.

١٣. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، السعودية ط(٢).

١٤. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني تحقيق محمد علي النجار ط(٢) بلا مكان بلا تاريخ.

١٥. الجويني، أبو المعالي الجويني، الارشاد الى قواطع الأدلة، مكتبة الخانجي بمصر.

١٦. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، المطبعة السلفية.

١٧. تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشد.

١٨. العقيدة النظامية، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩.

١٩. الخيالي، حاشية الخيالي على شرح النسفية، دار احياء الكتب عيسى البابي، مصر.

٢٠. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، نشر دار الكتاب العربي، ط(٤) ١٩٧٤.

٢١. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٩٨٦م.

٢٢. الشنقيطي، محمد الخضر بن مايابي، استحالة المعية نالدات، المطبعة المحمودية التجارية بمصر، بلا تاريخ.

٢٣. الصاوي، أحمد بن محمد المالكي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، دار الاخاء.

٢٤. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة. دار العلم للملايين، بيروت ط(١١)* ١٩٨٦.

٢٥. الظواهري، محمد الحسيني، التحقيق التام في علم الكلام، مكتبة النهضة المصرية، ط(١) ١٣٥٨ هـ.

٢٦. ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الاسلامي ط(٧) ١٩٨٣.

٢٧. الغزالي أبو حامد محمد، الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت ط(١) ١٩٨٣م.

٢٨. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة. تحقيق أحمد صقر، نشر عيسى البابي الحلبي بلا تاريخ.

٢٩. الفرهاوي، محمد عبد العزيز الفرهاوي، النبراس شرح العقائد، طبع باكستان.

٣٠. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، وزارة الثقافة والارشاد، دمشق.

٣١. اللقاني، عبد السلام بن ابراهيم، اتحاف المريد بشرح جوهرة التوحيد، المكتبة التجارية الكبرى ط(٢) ١٩٥٥م.

٣٢. محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر ط(٧) ١٩٨١م.

٣٣. محمد محي الدين عبد الحميد، النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد مطبوع مع اتحاف المريد.

٣٤. محمود صالح البغدادي، ارشاد الانام الى عقائد الاسلام، دار عبادة والبراء، عمان ط(١) ١٩٨٥م.

٣٥. النسفي، نجم الدين عمر، العقائد النسفية، نشر عيسى البابي الحلبي.

٣٦. الرزاي، ادريس بن أحمد، النشر الطيب على شرح الشيخ الطيب، دار الكتب الحديثة، مصر ط(١).